أطفال التراب

قصص قصيرة

عبد الرسول العريبي





الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

عبد الرسول العريبي

أطفال التراب

قصص قصيرة

الـدار الجماهيـرية
للنشر والتوزيع والإعـلان

الطبعة الأولى: هانيبال 1428 ميلادية (1998)
رقم الإيداع: 3228 / 98 ـ دار الكتب الوطنية ـ بنغازي

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان
مصراته: ص.ب. 17459 ـ هاتف: 614658 ـ 051 ـ 606086 ـ 021 ـ بريد مصور 619410 ـ 051
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

الإهداء

«إلى أطفال التراب حيثما ولدوا».

- 1 -

الليل، الوحدة، عواء الذئاب، أصوات الغابة، ردهات الروح القلقة الفزعة، جنبات القلب الموحشة، وجيب القلب حركة العينين في الفراغ الأسود، خشخشة الريح في مفاصل الصخور الواجمة، صمته الواجف، اللائذ بركن قصيّ، يظن أنه سيزيحه عن خطر محدق، كيانه المهمل المسجّى كأعواد يابسة رهين صدفة عابرة أو مباغتة عمياء.

- 2 -

مد يده في الظلام، سحب علبة السجائر وعود ثقاب واشتعل، خيّل إليه أنه اشتعل وسط الظلام. . ليلة لم تبدأ بعد، لكنها مظلمة وقاتمة مثل كهف مهمل.

ليلة مستغرقة في سديمها، تتلذّذ بوحشتها، وبفزعها وبصمتها المتوحش، ليلة حالكة بلا ثقوب، مهيمنة بسلطانها الموغل عبر الأفق في جسد الغابة بأكملها.

ـ 3 ـ

جسده المطوي الطويل مثل سنبلة عبر الصخور، صار يتململ، أحس أن عواء الذئب حين ينتهي في ردهات روحه السادرة، إنما لكي يكسر حدة الظلام والوجوم في داخله. الذئب المرعب، صوته المقترب بأنفاسه، الباحث عن رأسه أظافره الوحشية، صار منه قاب لحظة وأخرى.. ركضت الأسئلة في داخله:

كيف يرد الذئب والظلام والوحدة؟

كيف يكافح هذا الفزع وينهض؟

كيف يشعل سيجارة أخرى كيما يكسر حدة الظلام؟ ودون أن يعني ذلك أنه يوجد هنا في هذا الملاذ المرعب.

من يطفىء جمر الأسئلة المشتعلة في روحه؟

من يفتح له نافذة في قعر السماء لكي يضيء؟

من يقنع نجمة على وشك السقوط أن ترجم هذا الذئب الذي يعوي؟

لا أحد البتة!

لا أحد سوى صبره الذي نفد!

لا أحد سواه!!

هذا الجسد المتعب الهارب بروحه إلى الغد.

هذه الكومة من اللحم المكوّم بين الصخور.

ـ 4 ـ

في الظلام وقفت له الأسئلة كالسهام في صدره، ألم يكن أفضل لو مت أسوة بالآخرين؟

ولماذا لا أموت معهم؟ طالما الليل في انتظاري وكذلك الذئاب!.. أنا خائن وجبان وهارب.

لماذا لم ألحق بهم وأموت أسوة بموتهم كواحد منهم؟! وما عساي أفعل بروحي المنزوية هنا في أقبية الظلام، عاجزة أن تحلّق حولهم هناك في الزنازين.

من يفتح لهذه الروح الهاربة بؤرة إلى الشمس؟!

من؟!

أنا!!

جبان ألوذ بالظلام من الظلام، وبالذئاب من الذئاب وبالغابة من الغابة.

ـ 5 ـ

ململ جسده داخل خوف مهيمن تشتد قسوته كلما فتح عينيه.. استعار سيجارة أخرى في محاولة لإشعال النار في الظلام..

وتكلم في خاطره:

«هذه ليلة أطول مما يجب، وهذا ذئب ملتهب الأظافر لم يكف عن مسعاه».

هه..

إنه يلتمس وجبة له في جسدي، فيما أنا ألتمس لروحي النجاة داخل هذا الجسد..

تكلم أيها الظلام المهيمن..

أيها القدير الواسع المخالب..

افتح في سوادك نافذة لروحي لكي تطير بسلام إلى هناك . .

امنحني نجمة الصباح البعيدة قبل أوانها ودعني أرحل إلى هناك . .

أنزح عن كاهلي ودع الشمس تأتي قبل موعدها .

لا شيء سوى الشمس لظلام هذه الروح في أقبية الصخور! . .



ها أنا ذا سيدتي:

ها أنا مصلوب على جسر من القلق، وها أنت تحدقين فيّ من الداخل في القبو المعتم.. فترين الكآبة كالشجرة في عقر قلبي.

إلى أين؟!

فها هي روما مملوءة بالآخرين... وبي وبك وبالشيطان. ابتعاداً في الحلم في أفق اللحظة الساكنة حتى عبرا معاً حلماً في الفراغ، وضمت أرجاء المدينة كلها.

همست في أعماقها أني أكتشف عبر أنفاسي اللاهثة غباراً وشظايا وعتمة متصلة ما بين قلبي وأفق أحداقي أي زوابع هذه؟ وأي قدر سيقود هذا الأحمق للمجازفة حين يساومني على

واقعيتي المبهمة... بالوحشة..؟!

إن هذا الفراغ الذي بيني وبينها يتسع كالليل وفيما لو غالطتها في نفسها سأنسف لحظة الضوء هذه، التي عادة ما تجمعنا معاً... وتصهرنا معاً.....

لنصمت فقد تغتالنا معاً....

لكننا لا نفترق...

لن نفترق يا سيدي...

كان الصوت في أعماق كليهما.. يبتعد في صداه إلى الخارج.. إنه الصراخ والعويل حين ينفرد أحدهما بمأساته... وبالأنين وبالتوجع حين يلتقيان كقاتل وقتيل.

إنني أكرهك لكني لا أستطيع أن أعايش الوحدة بدونك، فهذه المدينة المزدحمة المتلاصقة في مبانيها والغارقة في النيون، وأصوات السيارات تحاصرني فيها الوحشة حين أكون وحدي... وكأنني سانتياجو في عرض البحر...

ـ وبي....؟!

ـ بك! بك تحاصرني الكراهية ويأكلني الملل.

ـ ولكننا معاً....

الظامئة.

أي مأساة يا امرأة حين نمشي في هذا الشارع الطويل بلا أثر لأقدامنا..

وراءنا إسفلت وأمامنا إسفلت وتحتنا إسفلت وفي أعماق كلانا شيء من الإسفلت...

ألا يكفي أن فوقنا السماء...؟ إن الفرصة الوحيدة أمامنا هي السماء...؟

ها هو المقهى مملوء بالأجساد والحركة والمشروبات المثلجة أيضاً...

ها هو الليل يتخذ لنفسه كرسياً ويرتشف قهوته المرة... وسيجارته تعمق العتمة، إنه هو الآخر لا يعرف أين يذهب....!

أي مدينة هذه يا سيدتي التي نجلس فيها وجهاً لوجه مع الليل والشيطان والوحشة؟

لكنك معي....!

ها أنت تعودين إلى صوابك.... وتبتلعين الصمت من حولنا...

أعني معاً. . . كالفراغِ مع الفراغ. . .

ها هي السحب قد تلاشت من أفق السماء وصار بوسع الشمس أن تطل وأن تأخذ لنفسها مكاناً في المقهى. . . وصار بوسع كليهما أن يفرك عينيه تحت وطأة السهر المتصل عبر الليل وخيوط الفجر وظهور الشمس. أي مدينة هذه يا امرأة التي تتداخل فيها الأوقات ونحن في العراء.

ـ 7 ـ

أعدم عقب السيجارة، وسار وحيداً تحت وطأة العجلة تجاه محطة القطارات تحتدم الهواجس في أعماقه وتختلط اللحظات ويقف وجهاً لوجه مع التكرار.

وحين يرانا الآخرون يراودهم إحساس ما بأننا نتنزه من فرط العشق. . .

لكنهم مثلنا يا سيدي ثمة خيط رفيع في مفاصل هذه المدينة يدرك من خلاله الآخرون أن من حولهم إنما هم أيضاً محاطون بلحظات السأم والعذاب، والوحشة.

أية وحشة؟

وحشة المدن الوثنية.

إنك تجازفين بآرائك يا امرأة!

كان الشارع الممتد بمساحة العالم يمتص حبات المطر الساقطة لتوها من السماء تباعاً ويمتص العرق والحرارة والحرقة. . . يلتص المظاهرات والأصوات. . . وألف لا . . ولا . . . كان الإسفلت بارداً وقحاً متعجرفاً يتعامل مع أقدام المارة بلا مبالاة.

الآلاف يعبرون ولا يتوجع، يتظاهرون ولا يتوجع فقط يمتص ببطء يمتص يلتص ولا يرتوي. . . وكأنه الصحراء كسنبلة برية في مواجهة الريح.

إن محطة البنزين هذه ستقصف ظهري، ستأكل أقدامي ستلتهمني كما يلتهم المحرك آخر جرعة من البنزين.

سأقف الساعات القادمة، بلا توقف حتى تختلط على جسدي الأوقات والفصول والقرون ورغم ذلك سأعود إلى كراهيتي الأبدية إلى. . . امرأتي.

وسأقول لها:

«إنك تجازفين بآرائك يا امرأة»

نشرت بمجلة الفصول الأربعة في 4 يونيو 85



تراكم

سبعة مشاهد للقلق

مشهد (1)

* منزوياً في مكان قصي، بعيداً عن الآخرين، إذ ليس ثمة من حوله، وحده ولكن ليس بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

* * *

* ثمة هاجس يعتمل به، يطرده، وأخبار تركض بمساحة رأسه، متناقضة، ومتداخلة، ترتطم بدواخله، تتكاذب وثمة خزعبلات، وترهات تتزاحم في وجدانه، تركض وتركض جيئة وذهاباً.

* * *

* وحده، لكن أعماقه تغلي، رأسه يتدحرج، إذ ثمة أخبار تقصفه قصفاً، فتهدم فيه أكثر من لبنة، تستحوذ على

كيانه، فتطفىء بداخله أكثر من شمعة، تحوله إلى بؤرة للحزن وقبو للظلام.

* * *

* وحده، لكنه ينتفض بين الفينة والأخرى ويمشي.. يمشي في اتجاه اليمين تحت وطأة اللهفة ومشاغفات الخلاص.. يمشي في اتجاه اليسار تحت وطأة الجوع.. لكنه يعود.. يعود ويبذل جهداً حقيقياً لكي يكون وحده.. وحده ليرى قلبه.. يتحسس أعماقه ويتحرى عن كثب احتمالاته.. لكن عبثاً.. يضع يديه في أذنيه، ويعصب عينيه، في محاولة منه لمحاصرة المنافذ التي تستقي عبرها كل الكائنات التي صارت تتحرك وتتوالد وتنمو.. وتتراكم في وجدانه.

* * *

مشهد (2)

لكن، قال في قعر أعماقه المظلمة.. لكن ليس ثمة جدوى وليس ثمة مفر.. التفت إلى اليمين بعينين دامعتين، التفت إلى اليسار بقلب محطم.. كأحد العائدين من معركة خاسرة أو المراهنين على جواد شائخ تبدّى من بعيد.

مشهد (3)

مسح الأرجاء بعينيه، صار بوسعه أن يرى الريح وهي تشتت قوافل السحب. تفعل فعلاً همجياً لا يطاق.. تحين الفرصة، افترض أن قد تستبد به لحظة طمأنينة.. قال في نفسه: قد؟.. خلع حذاءه، نفضه ببطء شديد، خلع رباط العنق.. راوده خاطر مبتسم لكن ليس بوسعه أن يبتسم. عاد وخلع معطفه، وتنفس الصعداء هنيهة، ثم عاد وخلع قميصه، تحسس أعواد الثقاب، عثر على عود وحيد أخير بحوزته.. وتحولت ملابسه إلى كومة رماد.. بعود ثقاب وحيد أشعل النار في الحذاء ورباط العنق وبالمعطف والقميص.. ها هو يشعر بالحرية والانطلاق، لكن قال وهو يبصق في الرماد.. لكن ولم لا فهذا السروال من جنس هذا المعطف فلتستعريه النار، ففعلها واستراح.

مشهد (4)

* آه يا ابن آدم آه ها أنت ذا وجهاً لوجه مع السماء.. ها أنت ذا تحرق آخر ما جئت به إلى هذا المكان القصي بعيداً عن الآخرين، عن أحذيتهم التي ركضت بها كثيراً في الاتجاهات الأربعة.. عن ملابسهم التي حالت بينك وبين الشمس والريح والسماء.

* إذ ذاك تداعت عليه خيول الذاكرة، صارت كميزاب يتدفق بمطر غزير، وصار يحاول الخلاص، يبذل يكدح بالركض، بالمرجحة، بالمستحيل، لكن عبثاً، ليس ثمة جدوى ولا مفر. وقف وحيداً عارياً، إلا من رأسه.

* هنا.. وهنا بالذات اكتشف أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يخلصه من الهواجس هو أن يرمي برأسه وسط كومة الرماد المتبقية من ملابسه الخارجية والداخلية.

مشهد (5)

* إذ ذاك راوده خاطر محزن، ساوره طائر الأسى وحدّثه غراب البين.

* لكن؟.. ليس ثمة دمعة واحدة في أحداقه.. قال بيأس سافر: ما جدوى أن يكون المرأُ برأس معبأ بالهموم؟.. وتوجس أنني وحيد. وحيد بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

* لكنه استدرك: وحيد أنا إلا من رأسي؟ إن كل المغالطات التي بداخلي هي من رصيد هذا الرأس.. إنه رأس لا ينضب. إن هذا المخزون المتراكم منذ طفولتي الساذجة في أقبية الأيام وحتى هذه اللحظة التي أتجرد فيها من كل شيء، إلا

مني أعني من؟ هو مخزون يرضع من فجيعة تتصل بشريان البؤس الإنساني. . وحدث نفسه بغضب معلناً: إنني أريد أن أجلس ولكن بدون هذا الرأس إنه رأس لكنه لم يعد رأسي لقد أصبح عبئاً على كاهلي.

* * *

مشهد (6)

* راوده خاطر مبهم، لكن ذلك لم يمنعه من الحديث المعلن. . وطفق يهذي. . إن التراكم الذي آل إليه ما بهذا الرأس كفيل بأن يطيح به وبي أيضاً، إن تراكم الأمور الصعبة ساء إلى حد صارت معه لا تطاق. . وصعد صوته كآذان الفجر، كرعود تتكسر في ثنايا السماء. . شيء يشبه الصراخ استبد به وسأل نفسه بحدة: لماذا الآن بالذات يتذكر أن ثمة إلهاً في الكون. لماذا نسي ذلك إبان طفولته وشبابه وحتى وهو يدخل إلى جحيم كهولته؟. . عاوده الهذيان أو ما شابه ذلك أن الرؤوس إذا تراكم فيها أو عليها الهم حوّلها إلى بؤر للأرق والحزن والأسى. . إن. . . وتحسس رأسه آه ما زال في مكانه لم يبرح شاغف شعره للمرة الثانية ثم هتف في داخله: إنني ما زلت أحمله، يا لصخرة سيزيف العنيدة.

* ثم ماذا؟.. شوهد في جنح الليل عائداً ورأسه معه لا يلوي على شيء.

مشهد (7)

* في صباح اليوم التالي شوهد.. شوهد وهو يقرأ الصفحة الأخيرة من كتاب (سيكولوجية الإنسان المقهور).


حافة الليل



لم يكن ليحدث ذلك لولا أن المرأة التي بجانبي همست لي: إنني خائفة.

ومنذ تلك اللحظة بدأت الحكاية تكتب نفسها.

كان البحر الذي يمد لسانه إلى أطراف الشاطىء يومىء لي بخيال ما يلوح في أفقه ويغيب وكان بوسعي أن أخفي ذلك بيني وبين عيني وهما يسترقان النظر عبر حافة الليل.

لكنني حين المرأة أعلنت عن هواجسها وهي بعد عارية بجانبي منتهية للتو معي من وجبة شبق حملناه معنا وأكلناه هناك.

كان جسدها طرياً بين أصابعي فيما هي تبدو وكأنها تذوب كقطعة بخار، ثم تتكون ثانية بين ذراعَي.

جسدها يمنحني دفئه ويحتويني، وحين يستغرقني الولوج

أنسى أنني وحدي فأداري قلقي بالنظر إلى الشاطىء الذي يمد لسانه لي عند حافة الليل فتلوح لي عروس البحر تستعطي حديثاً عابراً معي.

أهمس لها أن من أنتِ؟!

أنا حورية البحر، جئت إليك من صقيع البحار المظلمة ألتمس لديك ليلة دافئة، خذني بذراعيك وانشل جسدي من وحشته وساعدني على شبقي خذني إليك لحظة وهب أنني ألوذ بك.

مددت يدي إليها ونهضت بها من حافة البحر إلى حافة الليل، وجلسنا نتحدث.

قالت:

لماذا ترفض أن تمد لي يدك هذه الخشنة، وتضعني في نارك الملتهبة على الشاطىء، لقد مللت سيدي الأسماك الملساء.

همست:

سيدتي ما وراءك؟!

قالت:

البحر ورائي وأنت ونارك هذه المشتعلة في حافة الليل أمامي فغطيني برداء الدفء وامنحني جسدك لليلة واحدة ثم لن ترني بعد ذلك إلا في الأحلام، دعني أجوس عبر هضاب ذراعيك وألعق من فوق جسدك حرارة النار والعرق، إنني أشتهي أن أغيب بين ذراعيك تاركة البحر ورائي والأسماك الملساء.

* * * *

تململت المرأة النائمة بين ذراعيَّ وفركت عينيها وكادت أن تنهض لولا أن مسحت بيدي على جبينها: أن نامي، فنامت عارية بين ذراعي فيما حورية البحر تجلس القرفصاء عارية بدورها تتلذذ بألسنة اللهب المتصاعدة.

قالت:

لماذا لا تنهض معي إلى الشاطىء لكي نمشي معاً، تعال ـ وأخذت بيدي فيما اتكأت المرأة النائمة على الوسادة الملقاة ـ وجدت نفسي واقفاً هناك على الشاطىء مع حورية تتحدث:

نحن ـ قالت ـ نحلم بالشواطىء، وأنتم تحلمون بالأعماق نريد الشمس ـ نحن ـ واللهب وجحيم الرمال وخشونة البراري، وأنتم بدوركم تحلمون بحياتنا الملساء.

كانت الحورية التي أخذتني من يدي قد انغرست بنصفها الأسفل داخل الماء، فيما نصفها الأعلى ارتمى على صدري، كان شعرها يلامس أطراف الموج فيما هي وضعت رأسي على عنقها قائلة لي بتغنج:

يمكنك أن تتأمل البحر الآن من خلالي، وبدوري أتأمل اليابسة من خلالك.

الحورية التي احتوتني بذراعين أملسين صارت تنزلق من على كاهلي مثل الماء، وكان بوسعي أن أحس باختفائها من بين أصابعي راودتني وحشة عابرة فانكفأت إلى امرأتي التي اكتشفتُ أنها اختفت تماماً.

الإهداء

«إلى كل من جرب هذه الطفولة المنسية»

(1)

نحن أطفال التراب الذين ولدنا في منتصف هذا القرن الذي يحتضر، نحن الذين زحفنا بركب عارية، وأصابع ناعمة على أديم أرض متوحشة تلعق نعومتنا بقسوتها.

نحن أبناء القرى البعيدة عن المياه لنحملها على أكتافنا العارية ونجلب الحطب أعوداً يابسة من أفواه الغابة المدببة، نحفر بأظافر من خشب التراب فنخرج الترفاس[1] والتمير[2] ونقطف القازول[3] والقمحى[4] ونحمله إلى ذوينا فاكهة معفّرة بالطين.

---

(1) الترفاس: نبات بري ينهض تحت الأرض على شكل حبات البطاطس

(2) التمير: نبات بري تنبىء عنه زهرة تورق في شجيرات خضراء برية يتوالد تحتها مثل حبات العنب الأبيض.

(3) القازول: أعشاب ربيعية مزهرة بيضاء تلوح عن بعد برائحة مميزة تطبخ مع الكسكسي.

(4) القمحى: نبات فطري ينهض مثل القبعة بلونه القمحي المميز.

نحن نجوب الترع حين نخلع عن أجسادنا المعروقة أسمال السنوات الموحشة مخافة أن تبتل، فنعلقها على أشجار السدر قبل أن تثمر النبق[1] أو نعرمها كومة فوق كومة مخافة تطالها الشمس فتبيد وتتمزق فنعرى، نعرمها على ضفاف الترع عراة نندلق داخل المياه الملوثة بالضفادع والعليق[2] والأحناش المائية، فنشرب ونتبول ونتعاضّ مثل الجراء أو نراقب أعضاءنا الجنسية عن كثب، ثم نعود فرحين من رحلة شتوية، هي مجرد عبث في ماء ملوث.

نعود بأسمالنا مجففة على ضفاف الترع، التي نرتديها مخافة السحب المترعة المهووسة بمطاردتنا في القرى البعيدة مثل صغار الماعز.

نحن نعود إلى أمهات لا ينتظرننا، لكنهن حين الماعز يعود يهرعن إليه، فرحات مرحات راقصات فيعصرن أضرعة ملأى بالحليب.

نمسح الحليب ـ نحن ـ حين نمسح التراب العالق بأفواهنا ثم نتركه لأنه لا يزول، ثم نكتفي بتلك الجرع المسرعة إلى أجوافنا الخاوية.

---

(1) النبق: حبات حمراء هي ثمار لشجرة السدر البرية لذيذ الطعم.

(2) العليق: كائن مائي طحلبي يتوالد في المياه العكرة.

(2)

هي جرعة حليب مغتصبة من أكمام الماعز نتنافس عليها مع الجديان.

* * *

في صباح آخر لا نعلمه نكبر، نكبر جداً، فنحن الآن في الثانية عشر من العمر، وموسم الحصاد في انتظارنا، فنمشي إليه حفاة نمشي إليه.

نحصد ونغني.

أكبرنا كان يغني.

ثم نمضي معاً... (عبد الرحمن) الذي هو الآن في البحار المظلمة، يلاحق الماعز الذي يعكر صفو خلوته بفوضاه، و(علي) المخادع يراوغ في حصاده، ويتمدد على التراب ماداً يده إلى سنابل لا تأتي إليه.

وأنا الذي الآن، أجدني أحث خطاي مشتعلاً بأذرع من لهب أحيل السنابل إلى كوم خلفي.

أحصد وأحصد، أحصد بعنفوان الرغبة التي تسكنني،

رغبة أن أحقق أكبر قدر من المحصول قبل أن تغادر الشمس إلى أوطان أخرى.

* * *

ثم في صباح آخر تجدنا وقد كبرنا أكثر مما يجب، كبرنا بجروح ما زالت فينا غائرة.

هزمنا في حروب لم نرها.

سمعنا كل شيء دون أن نرى شيئاً.

عبد الناصر يستقيل، ينصب زكريا خلفاً له.

المصريون يرفضون ذلك.

العرب يبكون فنبكي معهم في الصحراء هناك، ونحن خلف الماشية.

جرح لم يندمل ما زال فينا اسمه (فلسطين).

أين فلسطين، يا أطفال الطين؟.

هناك يقول مدرس الجغرافيا:

(هناك وسط وطنكم العربي الكبير)

فنقبلها، مثل الكعبة التي لم نرها بعد، لكننا نرى أهلنا

يتوجهون إليها بالصلاة، سمعنا الثورة الليبية (القدس كلمة السر)، سمعنا فيروز تغني، القدس... القدس... القدس... قرأنا لمظفر النواب القدس عروس عروبتكم، الحسن الثاني لجنة القدس.

ونحن فاغري الأفواه.

ما زلنا حتى الآن فاغري الأفواه.

اقفلوا أفواهكم حتى لا تحتلها إسرائيل!!

قال لنا مدرس الجغرافيا:

اقفلوا أفواهكم.

* * *

لم نتكلم حتى الآن، ومن يتكلم ـ قال لنا الشرطي الذي يحرسنا ـ سأقطع لسانه.

سألته، وأنا أمسح الطين العالق على فمي من الترعة وحليب الماعز.

سألته:

(ممَّ تخاف علينا؟. من إسرائيل؟!

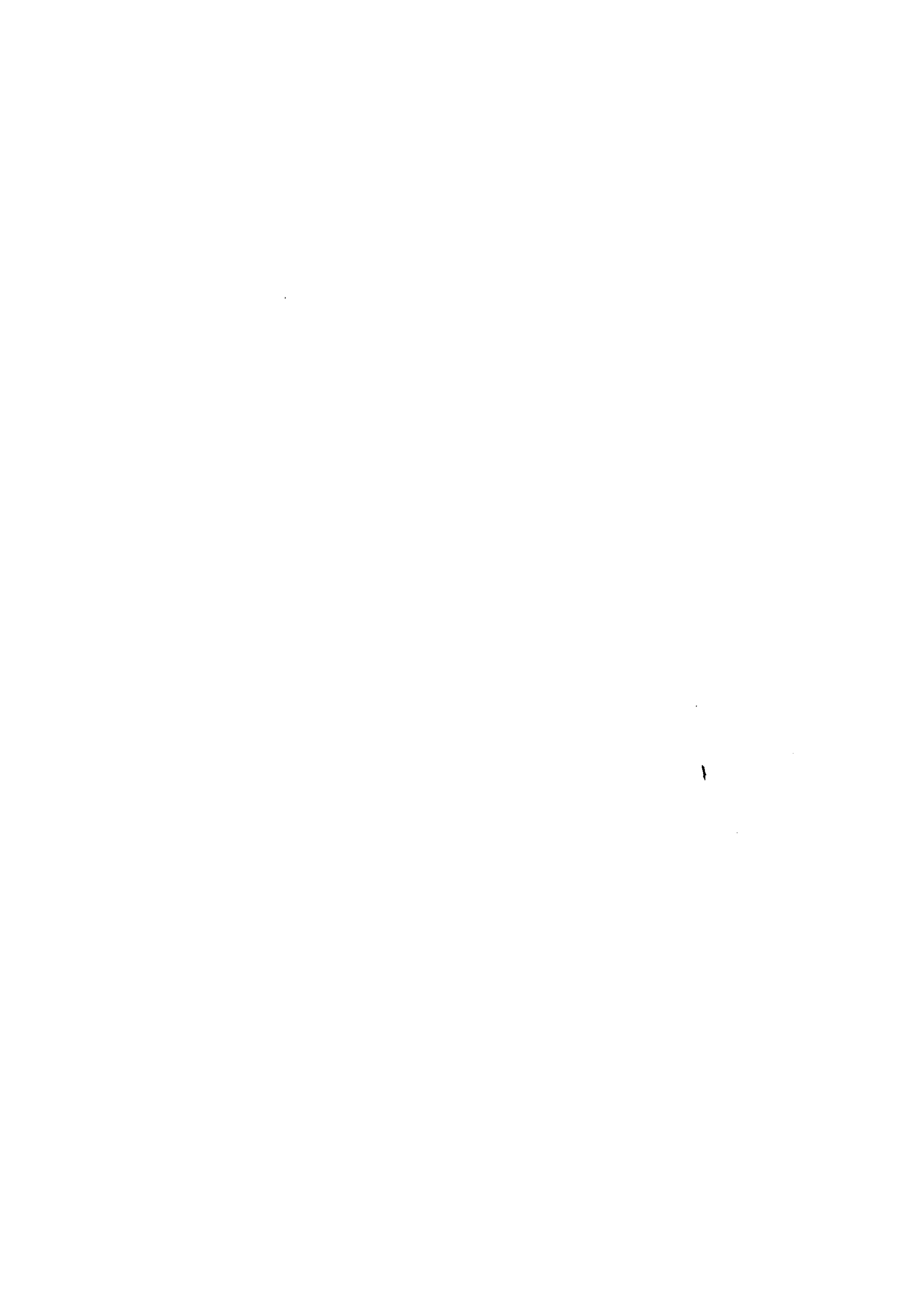
لا . . . قال الشرطي:

أخاف عليكم من أن تخرج ألسنتكم، فتقطع!

* * *

نشرت بصحيفة العرب ـ العدد الأسبوعي (3741) بتاريخ (7 ـ 8) 2 ـ 1992

ليلة في كنف الخوف



(1)

الـثـلاثـة رجـال الـذيـن صـعـدوا لـلـتـو إلـى قـلـعـة وادي (جرجارامه) هم أنفسهم الذين سيحلو لهم المقام هنا عند السفح لكي ينصبوا خيمتهم المثلثة الأضلاع ويشعلوا النار لمقاومة ليلة باردة في كنف الجبل.

(2)

قال سعد وهو ينظف بندقية صيده الإيطالية الصنع، وماذا بعد؟

هل جئت لكي أنصب خيمة في السفح وأتحدث عن السحب؟

لا بالتأكيد قال (البرجو)، لكننا كالعادة يجب أن نوطد

المقام لخيمتنا ثم ننصرف معاً إلى الصيد، هل ترافقني الآن لجلب عشاء ليلتنا الباردة هذه ونبعث الرائحة الشهية في أنف الغابة.

ولما لا، قال سعد الذي يروق له أن ينادى: «بالعرفي» ومعاً ركبا سيارة (لند روفر)، وهبطا إلى قعر الوادي المظلم الذي ينفتح على مزارع القمح، والتي في الغالب تجوبها الأرانب البرية والذئاب.

كان الليل قد أطبق تماماً وأنا بعد أقاوم ظلامه بتغذية النار بأعواد بدأت تنفد شيئاً فشيئاً، وصار بوسعي أن ألوذ بفراشي متحدثاً إلى نفسي عن القبور التي قال العرفي: إنها تبعد عن الخيمة بكيلومتر واحد.

وراعني أن خيالات صارت تعبر أمام ناظري، فيما السماء معتمة بلا نجوم والنار تخفت تماماً، وسيارة الأصدقاء تتلاشى بصوتها وضوئها بعيداً عني ولم يكن لي بد من أن أتمتم بآية الكرسي حتى أقاوم الأشباح التي تأكدت بأنها تعبث بالخيمة ومحتوياتها وتجوب المكان.

قلت في الظلام يجب أن أسحب بندقيتي وأطلق عيارات نارية في الهواء.

لكن يداً أحسست أنها أمسكت بي شلت أطرافي وأقعدتني مستسلماً لخوف وقف مثل الجبل فوق جسدي كله.

قلت لنفسي: لا بد أن أنهض فهذه أشباح غرسها العرفي في الخيمة وغادر ليصطاد هناك مع البرجو، ويتركاني فريسة لها.

عدت وقلت لنفسي لا بد أن أنهض، ونهضت فعلاً بعناد.

أمسكت ببندقيتي، وأطلقت عيارات نارية تجاه شبح خيّل إليّ أنه يقف في مواجهتي.

أحسست أنه سقط في الظلام، فتنفست الصعداء قائلاً: ليذهب إلى الجحيم.

وتمتمت: «الحمد لله».

استعدت الأعواد المبعثرة في أطراف النار، حتى إذا اشتعلت مررت أصابعي في محيط يعجّ بالأعواد اليابسة، وبدأت أغذي النار بها، فتصاعدت.

ساعدني ذلك في رؤية المحيط الذي تبدى أمامي أكثر أمناً، وتمكنت إذ ذلك من جلب أكبر كمية من الحطب في

محاولة لقهر الظلام الذي استبد بي وسط وحشة مظلمة لا نجوم فيها ولا قمر.

قلت للمرة الثانية: «الحمد لله» ثم قلت: «الحمد لله» متنفساً الصعداء.

صار صوت إطلاق النار ينتهي إليّ من بعيد، مما أدركت به أن الأصدقاء لا بد صائدي أكبر عدد من الأرانب وحتى الذئاب التي يروق للبرجو أن يراها ميتة.

كان صوتهم يقترب ورصاصهم يعلو وصدى محرك سيارتهم يكسر حدة ليل مهيمن فسيح الأرجاء.

وحين سقط ضوءهم سقط من فوق الجبل إلى السفح، حيث تنتصب الخيمة راودني خاطر غامر بالفرحة.

وصار بوسعي أن أغني.

نشرت بمجلة الفصول الأربعة



العشاء الأخير

مدخـل:

(طوبى لمن يراعي المسكين، ينقذه الرب يوم السوء، الرب يحفظه ويحييه ويسعده في الأرض ولا يسلمه إلى نفوس أعدائه).

مزمور **40 : 2/ 3**

(1)

امتصت الغابة الرائحة، وتشربت في أواخر الليل أنفاس الجسد المسجى بين أعواد شجرة البطوم، الشاهد الوحيد على موته.

تنادت الثعالب في أقبية الغابة وجيوب الجبل وعوت الذئاب.

النمل الذي ملَّ الأعواد اليابسة وخواء التبن، وحبات الشعير الخاوية، شرع بدوره في الإسراء إلى مصدر الرائحة.

تلذذت الغابة بوليمتها في الظلام، أكلت اللحم وشربت الدم وبددت الأنفاس الحرّى.

لا أحد هناك سوى النمل، ظل يقضم ويحمل طاقته إلى أقبية الشتوية البعيدة، تسربل في الدروب الوعرة ليبعثر جسم الرجل بمساحة الغابة.

***

(2)

روح الرجل المذعورة حلقت من فوقه بوجل وتأملت بقايا الجسد المتناثر في مفاصل الجبل وفي دروب الغابة في أفواه الذئاب والثعالب ومخالب البوم.

الروح المحلقة اللائذة بجسدها الموزع، ظلت في السماء مثل نجمة تائهة.

هذا بيت روحي تأكله الوحشة وتحمله النمال الجوعى، جسده حين كان طرياً وجميلاً ومدهشاً يمشي... كان يمشي.

يغني كان، هنا وهناك ويرقص، يأكل ويشرب ويتكلم

هناك حين كنا معاً في العشاء الأخير.

قال لي:

أنا ملاذك الجميل.

بل ملاذي الأخير أنت، قلت له.

كان جميلاً مثل سنبلة، فارهاً وكبيراً ورحباً.

كنت أقول له:

أيها الجسد المعذب أينما تذهب أذهب! وكان يبتسم، ويغني، ويتحدث عن غده، ويقول لي بصوت مرتفع لا تقلقي إن الحب معنا.

كان العالم بالنسبة له مدينة مفتوحة، يراوده دائماً ذلك الشعور المغامر بامتلاكه.

أستطيع أن أمتلك العالم، ـ قال لي ـ في العشاء الأخير.

أملكه بمجرد أن أجوبه من مقهى إلى مقهى ومن زقاق إلى زقاق ومن بوابة إلى بوابة، العالم ـ قال لي ـ:

نملكه فقط حين نحبه ونجوبه ونمشيه بأقدام السلام، يكون لنا إذ ذاك!

يصبح بيتنا، فالعالم قال لي: ليس ملكاً إلا للحب، هو ليس لأحد.

كان متفائلاً هذا الجسد الذي يجره النمل، كان مغامراً، غيوراً، هذا الجسد الذي تتوزعه الغابة.

(3)

لا أحد يعرفه سواي، أنا الذي سكنت إليه منذ أن عرفت أن هذا الجسد العريق لي..

* * *

تلاشت الروح في الظلام، فيما شرع النمل يسري ويحث أجساده إلى جسده، يمتلىء به ويعود. هذه عينه اليمنى وهذه اليسرى اللتين كان يرى بهما العالم، وهذا ذراعه في فم ذئب شره للحم وهذه أصابعه التي كان يكتب بها رسائل الحب.

* * *

وهذه روحه تبحث لها عن وطن!؟

من قتله؟

من ألقى بجسده هنا في غابة الموت والنمال السارحة،

من الذي أفسد لذة العشاء الأخير؟!

كان يحب العالم، ويصلي له.

كان يقرأ الشعر والكتب المقدسة!

أعرفه لم يؤذ أحداً، ولم يكن يحلم بشيء سوى أن يرى جسده في كل مكان.

* * *

يد من هذه التي اغتالت فيه العالم؟

لا بد أنها يده.

هي يده ذاك الذي لا يرى غضاضة في أن يكون الله.

* * *

حين رفض أن يصغر بحجم نفسه، وبحجم قريته رفضوه.

رفضوه لأنه كان أكبر من أحلامهم ومن رؤاهم ومن غدهم، فقتلوه.

جاؤوا إلى بيته في الظلام، حملوه عنوة إلى هناك قادهم إليه يهوذا الأسخريوطي.

صلبوه على أعواد شجرة الزيتون المتوحشة في أودية الجبل.

مات هناك وحده، فيما فرَّت روحه المذعورة إلى البعيد وجلست هناك تبكيه.

❋ ❋ ❋

صار وجبة شهية للنمل.

تحول جسده إلى أرغفة موزعة في بطون الغابة

(4)

قبل أن يكبر مات.

بلا قبر مات.

بلا شهود وبلا جنازة مات، وبلا صلاة.

❋ ❋ ❋

كان وحيداً كآخر الأنبياء وحيداً كخالقه.

كأبي ذر الذي يبعث وحده.

في مساء ذلك اليوم البارد، حين المطر صار يهطل تباعاً، متراقصاً على أكتاف المارة عبر الشارع الطويل ذي الأنوار الخافتة المطفأة في رؤوس أعمدتها، حين المظلات تزدحم من بعيد على رؤوس العجائز، والأحذية تلمع حيناً وتتسخ حيناً آخر لفرط الازدحام، حين الرجال يدسون أصابعهم المثلجة في جيوب معاطفهم مخافة البرد وحين النساء يلذن بالفراء المزورة الدفء والأطفال لا مبالين يمشون في الشارع الطويل، وحين السيارات تمشي متثائبة وبملل، وحين الكلاب راكضة عن كثب خلف أصحابها وأمامهم، وحين الشمس تتعمد أن تتلاشى فجأة نكاية في النور الخافت، تتلاشى تماماً وليل يرخي سدوله شيئاً فشيئاً، ومصابيح أخرى تضاء، وحين شرطة تنهض من سباتها لتعلن للصوص وأبناء الشوارع عن نفسها، فتومىء بالعصي

وتكح تباعاً، تتعمد أن تحدث جلبة تكسر حدة الصمت الذي فتح فمه خلف الأحذية المغادرة.

حينئذٍ يبدأ النهار عند رازقي ولد عمر الذي لا يعرف حتى الآن ما إذا في باريس عاصمة النور ثمة شمس أم لا.

فهو مبكراً يفتح عينيه في أقبية عمل لا نهار له ينتهي به إلى مساء معتم في زاوية هي معطف حياته في مدينة النور.

ينهض في المساء مغتسلاً من نومة مسائية تطول أحياناً حتى التاسعة حيث إذ ذاك تفتح المواخير والحانات أبوابها.

يمشي رازقي في الشارع وهو يستمع وحده إلى وقع قدميه.

يمشي إلى حيث يفضي به الشارع الطويل المعتم إلى زقاق ثم يفضي به الزقاق إلى ميدان يضيق بالمارة الذين تضخهم الشوارع المنتهية إليه.

لكنه لا يحس بهم وهم يهرعون إلى أقبيتهم كالصراصير.

فهو الآن منطلق إلى هناك حيث ستكون رولا في انتظاره كالعادة، رولا تحبني ـ يقول رازقي لنفسه ـ فهي كل مرة تزوّر لي الكؤوس الإضافية التي لا تحتسب، فهي تحبني حين تحتسب لي الكؤوس الخمسة كأساً واحداً.

قال رازقي ذلك لنفسه، وهو ما زال يمشي في الظلام متجهاً بهمّة إلى حانة النور الأزرق المنزوية هناك في مدينة باريس المعتمة.

قال مخاطباً رولا، التي أطلت مبتسمة بكأس مبكر لكي تردم الظمأ في جوفه في مطلع سهرة تتصل بهما حتى بوادر الفجر الذي يروق لرازقي أن ينتظره هناك، ثم يذهبا معاً إلى قبوه في الشانزيليزيه.

قال:

من ذلك الذي يجلس إلى ماريا؟

لا أدري ـ قالت رولا ـ هذا زائر لها وحدها لا أعرفه لم أره من قبل.

أنا ـ قال رازقي الذي بدأ يهرش شعره ـ أشعر وكأنني أعرفه.

إذن ـ قالت رولا ـ عليك به اغمره بالقبلات كالعادة عندما يلتقي عربي بعربي ثم ضحكت!

قبّله عوضاً عني فأنا ضجرة.

ضحك رازقي منصرفاً إلى كأسه المزورة الثانية.

بعد ذلك مضت الليلة في ألقها، فيما تصاعدت الموسيقى التي انبعثت خارج الحانة وتسربت إلى المارة في الأزقة المجاورة.

* * *

فجأة نهض الرجل الجالس هناك إلى ماريا وغادر.

وفي أثره اندفع رازقي مفتعلاً اصطدامه به ليجد نفسه يعتذر له حتى إذا تملى وجهه غمره بالأحضان، هو أنت أيها البدوي.

* * *

قال عامر: لقد جئت البارحة ولم يكن بوسعي أن أتذكر عناوين الأصدقاء، ولم يكن يدر بخلدي أن ألتقيك هناك إنني مغادر إلى لندن بعد غد.

بعد غد! ومتى جئت إلي باريس؟

صباح هذا اليوم.

إذن لنمشي معاً.

لا بأس ـ قال رازقي ـ لقد كان عليّ أن أخرج في أثرك وأفتعل اصطداماً بك لأغالب الشك باليقين فإنني مشتاق

فالوحشة هنا تأكل مني كل يوم.

تصور أن العرب هنا مجرد وليمة للضجر والعنصرية

معاً ظلا يمشيان ويتحدثان عن قراهم البعيدة هناك في الوطن البعيد.

قال رازقي:

هنا لا تتذكر أن ثمة طفولة بائسة لك، فقط تهتم بما إذا كان حذاؤك لامعاً أم لا، وما إذا كانت عشيقتك ستأتي في موعدها أم لا؟ وإلا ـ قال رازقي وهو يشعل سيجارة عامر ـ ستقع فريسة للوحشة.

نعم ـ قال عامر ـ وهو يمشى في الظلام. لكنني في كل مرة ألتقي مصادفة واحداً مثلك يعيدني مرغماً إلى ذاكرة معفرة بالتراب.

لكن باريس صغيرة نعم صغيرة جداً، فهي ليست سوى الحي اللاتيني، ما عدا ذلك هي العالم بأسره، نحن اكتفينا منها بهذا الحي.

هكذا قال رازقي وهو يترك العنان لدخان يصعد من فمه.

* * *

في صباح اليوم التالي وقد ناما معاً على وسادة من الذكريات البعيدة. صارت طرقات الباب تنتهي إلى وسائدهما فاستيقظ رازقي مذعوراً وحين فتح الباب هرعت الشرطة إلى الداخل، وتساءل الضابط:

أين من كان بصحبتك البارحة؟ أين السيد عامر الذي كان بمحاذاتك البارحة؟ معك كان يمشي في الظلام.

نائم ـ قال رازقي ـ إنه نائم قبل ساعة بالضبط.

نريده، قال الضابط، فهو مطلوب للمثول أمام العدالة الفرنسية إنه شخص مشتبه به.

لكنه مجرد سائح، وفي الغد سيغادر إلى لندن، فهو لأول مرة يزور باريس، وهو صديق طفولتي في مستغانم هذا كل ما بيننا ما الذي فعله؟!

ليس شأنك هذا ولا شأني ـ قال ضابط الشرطة ـ كل ما هنالك أنني ملزم بإحضاره للتحقيق معه في قضية لها علاقة بالأمن في باريس.

* * *

سأل عامر المحقق:

سيدي ما تهمتي بالضبط؟

لماذا اخترت أن تمشي في الظلام؟ تمشي في الظلام بمدينة النور باريس.

سيدي إن الطريق المؤدية إلى بيت رازقي مظلمة!

لا تقل هذا لي، قله للنيابة.

نشرت بصحيفة العرب بتاريخ: 1992.4.3

كرسي في مقهى

مدخـل:

«أحياناً نرى العالم ولا يرانا»

* * *

في صباح اليوم التالي لجأت إلى الانزواء.

اخترت فيما اخترت الهبوط إلى الذات، لاستدراك الهموم الذاتية.

ويجب أن أعترف هنا أن هذه المواجهات حقيقية تستبد بي، لكنها تعذبني بشراهة.

* * *

وحين انزويت وهبطت أدركني الاستياء

وحدي في مكان قصيٍّ بالمقهى المفتوح على شارع عمر المختار، راودني خاطر ما مبهم وضبابي عن الشيخ المشنوق بلا سبب، وعن موسوليني حين جر من قدميه وسط شوارع روما ولأكثر من سبب، لكنني وهذه حقيقة لم أبال.

❋ ❋ ❋

صرت وجهاً لوجه مع المارة، مع المدينة كلها، وإذ شرعت أتابع حركة الأقدام أمامي، أكتشف أن ذلك لا يجدي.

إذن ـ قلت لنفسي ـ لأرفع رأسي قليلاً لكي أتيح لنفسي رؤية الوجوه الكثيرة المغسولة بالعرق وبالشمس وأحياناً كثيرة بالكولونيا.

كنت في الواقع أختلس النظرات إلى أعماقهم، كانت ملامحهم الجافة لا تعني شيئاً بالنسبة لي، فعادتي دائماً أن أراهن على شيء خفي كامن هناك في الأعماق.

وإذ يشدني أحدهم بملامحه، وأتحسس فيها ذلك الشيء الغامض أجده يمضي ولا يبالي، أطوّح خلفه عينين متفرستين، لكن ليس ثمة من يأبه بي.

❋ ❋ ❋

أحدهم ذات لحظة رمقني فالتقت الأحداق، لاح لي أنه أعطاني مساحة عينيه، وما أن مضى بخطواته بعيداً حتى ٱلتفت، نعم التفت اتجاهي بالضبط دون أن يتوقف عن المسير، إذ ذاك تنفست الصعداء.

آه لابد أنني غرست في وجدانه حقيقة ما!!

ألم أقل لكم قبل قليل بأنني لست تافهاً؟!!

هل قلت ذلك حقاً؟!!

كنت مع فنجان القهوة وجهاً لوجه أحاوره حينما أرتشفه حيناً آخر فيما عيناي تقومان بمهمتهما بشكل سافر.

هذا يبدو أنه متعب ومفلس أيضاً، وذلك بالتأكيد بلا زوجة، وبلا أولاد، لا بد أنه يستمتع بذلك، وهذا لا بد أنه مملوء بالدراهم، لكنه يبحث عن شيء ما وهذا!!

تبدو ملامحه المصرية صارخة، يريد أن يسافر هذا الصيف الممطر ستكون رحلة طويلة بلا شك.

* * *

إنه الانزواء.

الهبوط عميقاً إلى الذات، ذات الآخرين وذاتي كنت

أغوص حقاً حتى لمحت عبر بؤرتي الرصد أحد السودانيين اتّضح لي للوهلة الأولى أنه لم يغادر المدينة منذ عشر سنوات.

فيما اتضح لي عبر عتمة الذاكرة أنه صديقي القديم عبد السلام عثمان وأنه... ثم أطرقت.

* * *

أطرقت عبر الأقدام، عبر الوجوه، عبر الأعماق لكن النادل الذي أفزعني حقاً قال لي:

هل ترغب في شيء آخر؟

نعم ـ قلت له ـ إنني أحوج ما أكون لعلبة سجائر ومطفأة أخرى غير هذه، قلت له، امتلأت حتى الحافة بالنفايات، ثم ماذا؟ قال لي:

خذ هذا العقب معك، لكن أكدت عليه إياك أن تلقي به في الشارع إياك، ضعه في المطفأة الكبيرة تلك، حيث أحزانْ المارة كلهم.

* * *

لم يبتسم لم يبالِ لكنه ذهب في عجالة مفتعلة نعرفها نحن زبائن المقهى عن كل نادل مثله.

وإذ انصرف أحسست بأنه تجاوزني إلى الآخرين، وكان بوسعي أن أحس أيضاً باحتواء الفراغ لكياني المتعب، بل للمقهى كله. وأيضاً داهمني إدراك ما عارم بأن العالم بأسره ضحية بدوره للحظة الفراغ تلك.

❊ ❊ ❊

الساعات صارت تتساقط أمامي كأوراق الشجر. فيما الوقت يعبر سحابات فوق جسدي المنهك، وإذ تضج الساعة تحت وطأة احتضارها تراودني الشيخوخة فيتساقط الشيب مثل الثواني الميتة.

❊ ❊ ❊

لا يهم، لكن ماذا حدث في الخارج أعني في خارجي.

امرأة غير جميلة وغير أنيقة، ولكنها تبتسم. نعم تبتسم لرجل يصطحبها لاح لي كزوج مجهض الرجولة وحين استشعر أحداقي على تضاريسها انتفض وصرخ في وجهي، وقال:

(..............)

لقد قال ذلك بوقاحة يحسد عليها وقال:

(..............)

لكنني لم أبالِ

لم أُعِرْهُ وجهة نظري، وبدوره لم يمنحني المتسع من الوقت لكي أصمت أو أتكلم بل شرع عبر لغة مهشمة وضبابية لكنها سافرة للغاية في غايتها وحدد هويتي:

هذا (.............)

* * *

التفتت المدينة من أقصاها إلى أقصاها وصار وجهي في الواجهة، وكانت أحداقي، وكنت أنا في كامل كياني المتعب، الصمت لفّني صار أكبر مني.

حدقت عبر وجع غامض لكنه مغرق في البراءة والود، وتراجعت عبر (أرشيف) أيامي، اخترقت الأزمنة والثقوب، لكنني فجأة عدت أدراجي إلى المقهى.

* * *

لقد ساءني أن ليس ثمة من حاول اختراق جدار الصمت المبهم إلى قلبي حيث تقبع قصة طويلة ومملوءة ومدهشة، في حين لم يتوقف شبه الرجل عن شتمي، فيما أسرعت زوجته التي ليست جميلة وليست أنيقة لتقول لي من خلاله:

يا هذا. . . يا أنت يا أيوب. . إنك تضيع وقتنا في المقهى.

مقهى الـ(. . . . .)

* * *

وإذ تراكمت الخواطر حول الصبر الذي ذكرني به هذا الأيوب، وحول المرأة التي تريد أن تتركني فريسة للذهول والشتائم، إذ ذاك اتضحت لي حتمية الموقف ومنَّيت نفسي بفرارها، لكنها لم تفعل، فيما اكتشفت على الفور أنها ليست جميلة وليست أنيقة.

لكنها بذيئة.

* * *

واكتشفت فيما اكتشفت أن المعركة كلها من طرف واحد.

وأنني لست سوى كرسي في مقهى.

إلى روح الفنان «محمد أبو شعاله»

«X»

منذ مدة لم أر الشمس وهي تشرق، لست أدري؟

كل مرة أمشي فيها أكتشف أن الشمس ورائي.

كنت دائماً أراها وهي تغرب وتغادر وتمشي خلفها الظلمات وحين كنت أراها عن كثب تسقط في قاع البحر أشعر بالأسى.

ثم تجدني من ثم أمشي عبر الشاطىء الطويل الساكن الساكن أستمع إلى جلبة بداخله، فيبدو لي وكأنهُ يمضغها على مهل.

أمشي واضعاً يديَّ خلفي ووجهي يتملى في تفاصيل الكورنيش البارد، فمي مغلق باستمرار وقلبي يدق بتراتب عادي.



كنت أمشي، فيما الليل يمشي خلفي بعباءة كبيرة مهولة وسحرية، درجة أنه يحيط بي كُلّية ولم يعد بوسعي سوى رؤية الفوانيس المعلقة وهي تسلط أضواءها كل من حدوده فأقطع إذ ذاك المسافة بين المصباح والمصباح بخطى بطيئة أشبه بخطى القيود القصيرة.

كان ثمة مارة، هم مزيج من الغرباء وأهل بلادي، وكانت القطط تدب قاطعة الطريق الدائري الذي يلف المدينة ناحية البحر مثل ثعبان أسود خرافي.

أرفع رأسي قليلاً فألمح عن كثب سيارة واقفة على الرصيف بمقدمتها فيما مؤخرتها على الطريق، وإذ هي تسد طريق المارة تجدني أهبط فأحيد عنها مرغماً لأتواصل من ثم مع الكورنيش ثانية.

كانت السيارة الصغيرة تحتوي اثنين من الشباب.

رأيت في عيونهم بريق الخمر الخفي، فصار بوسعي أن أنشد لديهما لذة مؤقتة فقررت في تطفل سافر أن أسألهما جرعة خمر لوجه الظمأ.

قالا: ولم لا؟ وبفم واحد مخمور، خذ ـ أضاف أحدهم ـ هذا دورك الوحيد والأخير، فلم يعد في القنينة ما يغري.

علّق الثاني ساخراً: لقد نفدت اللذة يا بني وأنت تأخرت قليلاً فجوادك من خشب.

سكبت تلك الجرعة الحامية ومشيت.

تسرَّبت عبر حلقي جمرة وانطفأت. وأشعلت سيجارة في أثرها فكانت السيجارة الأخيرة معي.

جلست في حديقة الميدان، والتي واجهني بها مباشرة مبنى المصرف الذي به حسابي الخاص.

تذكرت من فوري ورقة الأمس التي أعادتها إليّ موظفة الحسابات الجارية وبها علامة «X».

إذ ذاك تحسست جيبي في أمل أن أعثر على نصف دينار أتمكن به من الحصول على علبة سجائر من الدرجة الثالثة، لكن عبثاً.

فقد صار بوسعي أن أشعر بخفتي وضآلتي عندما أدركت أني خالي الوفاض.

كانت السيجارة بين أصابعي تأكل نفسها ببطء وشره، وحين تأملتها عن كثب وجدتني أقول بيسر:

«الساعة الآن الثامنة مساء، وها هي تنفد بين أصابعي فيما

جيبي خاو، والمارة بعيونهم الزجاجية في تناقض واضح، فتعرت الشوارع والأزقة والطرقات».

وضعت رجلي اليمنى فوق اليسرى كعادتي دائماً وبدأت أتأمل: زنجيان مرّا همهما بكلمات مقتضبة، أشرت إليهما أن تعالا، أحدهم الأطول قامة استدار تجاهي وتساءل بحذر:

نعم ماذا تريد؟!

قلت: علبة سجائر....!

ضحك، هما سيجارتان، خذ واحدة، هكذا قال لي وغادر.

أحسست إذ ذاك وكأن الرجل تقاسم العالم معي.

أشعلت الأخيرة من الأولى وطفقت أراقب العالم عبر العتمة، فيما دخان سيجارتي يصعد مسترسلاً عبر السماوات.

تأملت المصرف المنتصب أمامي تحت نجمة أغسطس المضيئة.

تذكرت حسابي به، وكيف أنه لم ينمُ إطلاقاً ولم يكن في كل الأحوال سوى المائة دينار نفسها تتكرر بين الشهور مثل مسبحة مملة.

عباءة الليل الواسعة الأرجاء أحاطت بي تماماً والأصوات انقطعت وتلاشت كليَّة فيما اختفت القطط والنجوم وأحذية المارة، ووحشة مشت تحت جلدي تخللت روحي الساكنة في الظلام، والصمت وسيجارة مؤنسة تعلن عن احتضارها.

كان بوسعي أن أتململ وأمشي، لكنني لوهن ما كامن في جسدي لم أفعل ذلك.

قلت ببله:

«من يا ترى يكسر حدة هذا الليل؟»

من يشعل شمعة في ظلام أقدامي الواهنة الساكنة؟

كنت أتساءل بسذاجة واضحة، وكانت خفافيش الليل وحدها تقوم بحركة مذعورة لكسر حدة الظلام الواسع الأرجاء، وقد فعلت ذلك وكأنها تستمع إلى وجيب قلبي.

كانت تمرق من أمامي خطفاً ولمحاً وخوفاً، فحاولت أن أسكن مثل تمثال في حديقة على أن أمسك بأحدها وأتأمله عن كثب لأتحقق من الفرق الكامن فيه بين الطائر والحيوان، لست أدري لماذا قررت ذلك!

أحدهما مر أمامي مباشرة، رف بجناحه أمام أنفي، ثم

عاد منكسراً في الهواء إلى هوَّة الظلام.

لم أتحرك!

ما زلت ساكناً، صارت الخفافيش تعبث بالليل وبي، توحدت بالظلمة جامداً وبلا ملل.

السيجارة نفذت والعقب هوى، وجسدي تكور من برد الكرسي الرخامي الذي تبلل بالندى من حولي.

روحي واجمة داخل ثيابي، مرتاعة من هول الليل والخفافيش والمدينة السابحة في سديمها في نوم...

عميق

عميق

عميق...

مدخل:

«حين الشجر يسقط أوراقه باتصال، فهذا يعني أنه يبكي»

(الرجل)

*** الشجرة:**

حين عبر الصيف على جسدها الغض، تمهل هنيهة، وإذ أشرق الفصل التالي، اكتشفت الشجرة أنها بلا ماء.

وحين عبر الخريف على جسدها الشاحب لم يتمهل، لكنه حمل في معيته الأوراق المنهكة، ومضى.

وإذ أشرق صباح اليوم التالي، أدركت الشجرة أنها عارية.

عارية ليس كما خلقت ولكن كما أرادت لها الفصول.

* * *

في الأثناء اكتشف (الرجل) النائم تحتها منذ قرون أن الحرارة قد اكتنفته فتتت مساماته وأن الريح بعثرت كيانه، وأن عظامه الواهنة، صارت في مواجهة البرد والعراء.

* * *

وفيما الشجرة تحولت إلى مخالب تستعطي السماء بلا طائل.

تململ الرجل وحدق في الفراغ اللامتناهي، لاحت في أفق عينيه أشياء كثيرة، فيها ملامح الشجر، الطيور والبشر.

لكن الرؤية القاتمة كانت تصله عبر تهويمات من اليأس والأسى.

وإذ شرع في المسير ساوره أكثر من خاطر مبهم عن النمل السارح بلا عنوان عن أبي ذر حين مات في صحراء قريش... وعن....؟!

بصق في مواجهة الريح مسح الرذاذ... تمتم:

يا لصفاقة الريح، كاد أن يجهش بابتسامة ولكنه مضى.

ضرب بعصاه في السماء بفأسه في الأرض، وبذر حزنه عبر المسافات، أغرقه بآخر ما في حدقتيه من دمع تذكر أنه شجَّ الشجرة.

فتح فيها جرحاً.

سكب قطرات من دمه في جوفها، وتمتم بتضرع:

«وجعلنا من الدم كل شيء حي»

* * *

الشجرة التي صارت عارية كامرأة صحراوية، بدت وحيدة تأكل الوحشة من أطرافها وأصابعها، تباعدت ونأت فأغرت الطيور بالملاذ فهوت إليها الصقور.

فكانت بذلك الوكر والمنتجع.

والملاذ.

* * *

عارية إلا من الصقور.

ظامئة إلا من جرعة دم.

فروعها تتضرع للسماء، جذورها تتشبث بالأرض رغم كونها تترنح إلا أنها لم تسقط، وإذ تسامقت تحت الكبرياء شرعت جذورها تتشبث بالأرض، تقبض على الطين، فيما بدت

فروعها وكأنها تحاور السماء، في آخر محاولة لدرء الخطر ومغالبة الاحتضار المستحيل.

كان صوت قلبها يدق بلا توقف، يبتعد صداه في المدى ويعود، وإذ يساور الرجل بين الحين والحين يراوده الفزع، فيهرع إلى أنياب الخلاء فالضياع.

***

قيل إنه ابتلع من فرط الظمأ ثلج القطب الشمالي حتى تحول إلى أحد الدببة القطبية، فصار إن تكلم يكون كلامه بارداً، ثقيلاً يتبعثر كقطع الثلج الملوِّحة عبر سفح بلا أفق.

وقيل ـ فيما قيل ـ إنه تحول إلى سمكة تظهر بين الفينة والفينة في البحر المتوسط وفي المحيطات فصار سميناً لكنه بلا ذاكرة، ويتحدث بلغة الوهم.

وقيل ـ والعهدة على الراوي ـ أنه مات في الحرب العالمية الأولى، ثم مات للمرة الثانية في الحرب العالمية الثانية، وأنه صار يموت بشكل دوري على مشهد من العالم بأسره، لكنه فيما يقال:

بلا قبر...

بلا كفن...

بلا عنوان. . .

* * *

الشجرة، أحست بالعري، وبوطأة الزمن وبعيون العالم وهي تخترق جسدها المتهالك بلا ورق، وليس ثمة سوى حفنة الصقور تأمّها وتنتجعها فتمنحها الدفء بالريش عوضاً عن الورق، والطمأنينة عوضاً عن الإنسان،

وفي غضون ذلك تستشعر الشجرة عورتها رغم مسحة الكبرياء التي تجللها فتبكي.

تبكي مثل الخنساء، فيصير بوسع الصقور أن تصفق بملء الأفق على وقع النشيج.

* * *

لكن دموع الخنساء تسربت إلى أعماق الأرض، صارت نهراً أبيض، اخترق الشحوب وتغلل، سرى في الأوصال دما وماء.

* * *

لاحت الشجرة إذ ذاك. . .

(زيتونة لا شرقية ولا غربية)

مدخل:

«عندما تتكرر الأشياء تصبح مألوفة، تماماً كما الموت مألوف»

* * *

(1)

ها هو يخلع حذاءه

ها هو يتسلل برفق وببطء إلى الحجرة المتاخمة تماماً لحجرة نومه.

يتحدد ويتمدد بمساحة جسده، ويتنهد، يتنهد بمساحة صدره.

(2)

ها هو يصرخ ويصرخ بمساحة فمه.

لكنها حواء لا تجيبه، فقط لأنها تعودت منه أن يفعل ذلك كل يوم.

* * *

ها هو يبتلع طعامه، لقمة إثر لقمة، ويعبّ الماء جرعة فجرعة.

ويشرع في قضم الفلفل، ورؤوس البصل وبعض الأوراق الخضراء.

* * *

ها هو يتململ، ويلقي (بطاسة) الشاي فارغة على قارعة الحصير، من ثم يداعب النوم، يغازله، ويغمزه ويستعطيه، لكن النوم لا يستجيب له بل يعصيه.

فقط لأنه تعوَّد منه أن يفعل ذلك كل يوم.

ها هو ينظر من حوله، يحملق ويبحلق، يلمح الساعة وقد قاربت الخامسة مساءً.

* * *

يخرج إلى الشارع، يجتاز حفر المجاري يقفز إلى الضفة الأخرى ويعبر الطريق.

ها هو في المحطة ينتظر وينتظر بكل مساحة وقته، لكنها الحافلة لا تأتي.

فقط لأنها تعودت منه أن يفعل ذلك كل يوم.

* * *

(3)

ها هو يلعن ويسب.

يلعن ويسب الحافلة.

والمجاري.

والوقت الهارب.

يسب ويبصق ويبدد انفعالاته.

لكن (أحد) لا يجيب.

فقط لأنهم تعودوا منه أن يفعل ذلك كل يوم.

فهرس

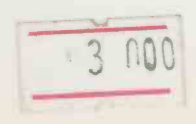
أطفال التراب

نحن أطفال التراب الذين ولدنا في منتصف هذا القرن الذي يحتضر.

نحن الذين زحفنا بركب عارية، وأصابع ناعمة على أديم أرض متوحشة تلعق نعومتنا بقسوتها.

نحن أبناء القرى البعيدة عن المياه لنحملها على أكتافنا العارية ونجلب الحطب أعوداً يابسة من أفواه الغابة المدببة، نحفر بأظافر من خشب التراب فنخرج الترفاس والتمير، ونقطف القازول والقمحى ونحمله إلى ذوينا فاكهة معفّرة بالطين.

«من قصة أطفال التراب»





مصراته : ص.ب. 17459. هاتف : 614658 . 051. بريد مصور 619410 . 051

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى